(*) « مانويل موخيكا لاينز » (المولود عام ١٩١) احد كبار كتاب القصة المعاصرة من الأرجنتين ، واشهر مجموعاته « ما عاشوا » و « نهض ايرين المجهولة » . واكثر قصصه تاريخية ، ومنها هذه التي يروى فصلا من الغزو الاسباني للارجنتين يوم كانت موطنا للهنود .

تأليف
مانويل موخيكا لاينز
ترجمة : تزيه الحكيم

يرأن الهنود ، من حول الساح الذى ينتهى اليه المرتفع ، قبالة النهر ، للتمتع ليل نهار ، وفى الظلام من غير نجوم تبث مريدا من الرهبة . اما الاسبانيون ، المتمركزون فى حفر بين الحلفوع فيرون على ضوء النيران أنى تنشرها الريح المجنونة ظلال المتوحشين الدائمة الحركة وبين الحين والحين تسرب الى اكواخ الطين نسمة من الهواء لاسعة البرد ، تحمل معها اناشيد الحرب وصيحاتها فلا يلبث أن يتجسد بعدها تساقط السهام المحرقة ، التى تضىء بمرورها الخاطف مرى المشهد . اما فى فترات الهدنة ، فان آهات القائد الذى لا يغادر فراشه تزيد الغزاة رعبا ، فيتمنون لو استطاعوا الخلاص منه ، لو استطاعوا نقله بمقصده ، وهو كالمعتوه يتنفى رمحه ، الى المراكب لهنرة بعيدا وراء الشاطىء المتوحش ، ولو استطاعوا نشر الاشرعه والهرب بانفسهم من هذه الأرض الملعونة ؛ ولكن حصار الهنود لهم يمنعهم من ذلك . فان لم تكن صيحات المحاصرين ولا آهات « مندوسا » فهى توسلات اولئك الذين ارهقهم الجوع ، والذين تتزايد شكواهم كمياه المد ، من تحت الأصوات الأخرى ، من تحت المطلقات والسهام الطائرة وتداعى البيوت المحترقة .

هكذا مرت ايام عديدة ، ايام كثيرة . لم يعودوا الآن يعدونها . واليوم لم تبق كسرة خبز . ذهب كل ما يمكن ان يقاسم ، او يبتزع ، او يمضغ : حصص التموين الهزيلة أولا ، ثم الدقيق المعن ،

والجـــرذان ، والزواحف الصـــغيرة القذرة ، والأجنحة المعلبة التي التهموا جلودها في هذيان . الآن تساوى القادة والجنود ، يرقدون في أي مكان ، قريبا من النار الناصلة أو الأوتاد المصوبة للدفاع . وأصبح مصيرا تمييز الموتى من الأحياء .

ويرفض « دون ديرو » أن يرى عينيه المتورمتين وشفتيه كثمرة التين الجافة ، ولكن في داخل كوخه الحقير يتابعه شبح تلك الوجوه وقد تخلت عنها أجسامها ، ترجف في سخرية ساكنة فوق قطع الأثاث الفخمة التي أتى بها من « قادس » ، وتكاد تلتصق بالسجادة الضخمة التي رسم عليها شعار (رهبانية سيتاعو) ، ويراها على الوسائد ، بين الأطباق التي خلت من الطعـــام فكشفت في قعرها اللماع عن شعار مؤسس الأسرة المالكة .

ويتلوى المريض كأن به مســـا من الشيطان . ويده اليمنى ، التي أحاطت بها سبحة من خشب ، تتعلق بشرافات السرير ، يشدها في حنق ، كما لو كان يود اقتلاع سقفه الأرجواني ودفن نفسه تحت رسومه الطرزة . ولكن ذلك لن ينجيه من آهات الجنود ، ولن يمحو عنه ذكرى صوت « أوسوريو » ، الذي تركهم يقتلونه على شـــاطىء « جانيرو » ، أو صوت أخيه « دون دييغو » الذي ذبحه الهنود ، ولا الأصوات الأخـرى الأكثر بعدا ، أصوات أولئك الذين قادهم الى نهب روما ، يوم اضطر البابا أن يلجأ مع كبار رهبانه الى حصن « سان انجيلو » بل لا حاجة به أن ينظر من النافذة ليذكر أن في الساحة قريبا منه ، في قلب الواقع الحي ، جثث ثلاثة من الاسبانيين أمر بحرقهم لأنهم سرقوا خبزا وأكلوه . انه يتصـــورهم مقطعي الأوصال ، لأنه يعرف أن رفاقا آخرين لهم قـــد نهشوا عضلاتهم .

متى يعودون ، أولئك الذين ذهبوا الى البرازيل ليأتوا بالأعذية ؟ متى ينتهي هذا العذاب ويرحلون الى اراضي المعدن واللؤلؤ ؟ متى ؟ ..

وآخر أيضـــا يهتم بالحـــال . انه « بابتوس » صـــانع أنواس الرماية . يقـــبع في زاوية من دكانه ، على الأرض العارية ، ويفكر أن القـــائد وضـــاطه يتهمون بالموائد الغنيـــة بينما هو يقتله الجوع الذي يعرف أخشاءه . وإذ ذاك يهدو حقـــده على رؤسائه أشد لهبا ؛ ويدعمه هذا الحقد ، يعليه ، يمنعه من أن يستسلم للموت . انه حقـــد قـــد لا يبرره شيء ، ولكنه في حياته الخالية من الايمان يرودد بالحافز العنيف . لقد كان في « مورون » يكره ســـيده ؛ فاذا هـــو جاء الى أمريكا فلأنه حسب أن سيغتني فيها الجميع ، سادة وأتباعا ، ثم لا توجد بينهم فوارق لشد ما صل به الحساب ! ان اسبانيا لم ترسل الى الهند الجديدة (١) جيشا يضم عددا من الاشراف كهذا الجيش كلهم «دوقات» ! وعلى سطح المركب وفي غرفـــة كانوا يتحدثون كما لو كانوا في القصور ! لقد كان « بابتوس » يرقبهم بعينـــه الصغيرتين وقد أطفأهما نصف اغلاقة ، فلم يكن بينهم لديه من يستحق بعض

(١) هكذا كانوا يسمون القارة الامريكية .

الاحترام الا « حوان أوسوريو » ، ذلك الذى قتلوه فى « خانيرو » . قتله السادة حسدا ومخافة . ما أشد ما يكرههم ، بتقاليدهم ومظاهرهم ! كما لو أنهم ولدوا جميعا على طريقة واحدة ! بل انه ليزداد نقمة عليهم حين يحاولون التلطف ويتحدثون الى البحاره كما لو كانوا فى مستواهم . كذابون ، كذابون ! انه ليكاد يشعر بالغبطة للكارثة التى نزلت بالحملة فكانت ضربة قاصمة لأطماع هؤلاء الأمراء المريبين .

الجوع يدفع السوم الى دماغه ويحمله يهذى . الجوع ! الجوع ! لو يستطيع أن يعض بأسنانه قطعة من لحم ! ولكن اين اللحم ؟ اليوم بالذات ، مع شقيقه « فرنسسكو » يستند أحدهما الى ذراع الآخر ، حاس المعسكر كله ! لم يبق فيه ما يسرق . عبثا عرض أخوه على الآخرين أن يبادلوه قطعة ، أو أقمى ، أو جلدا ، أو أية لقمة ، بالجوهرة الوحيدة التى يمتلكها ذلك الخاتم الفضى الذى أعطته اياه أمه يوم أبحر من « سان لوكار » . وما كان يواجد شيئا حتى لو قدم خلا من ذهب ، لأنه لم يعد هناك من شىء . لم يعد هناك الا أن يشد على بطنه الذى تحرقه الآلام وان ينطوى على نفسه راعشا فى زاوية الدكان .

ولكن الريح تحمل رائحة الجثث المحروقة . ويضع « بابلوس » عليه ويمر بلسانه على شفتيه المحروقتين . الجثث المحروقة ! هذه الليلة دور أخيه فى الحراسة فى موضع القيصلة . ولا ريب انه الآن هناك ، مع قوسه . لم لا يزحف اليه ؟ لعلهم معا يستطيعان ان يقتلا احدى الجثث وحينئذ . .

وحمل سكينه العريض وخرج يتهادى .

هى ليلة طالعة البرد من ليالى « بونيو » (١) . القمر الشاحب يلقى نوره الهزيل على الأكواخ والسيران المتفرقة . ويكاد المرء ان يأمل السلام

مع الهنود بعد ساعات ، فهم الآخرون جياع ، وقد تضاءلت حدة هجمتهم . و « بابلوس » يبحث عن طريقه فى الظلام ، بين الشجيرات ، باتجاه المشانق وتتراءى له ، كثلاثة رقاصات بشعة ،

(١) حمى فصل الشتاء في الصقع الجنوبي من الكرة.

الحشد الثلاث المعلقة المهشمة ، معلقة بلا ادوعة ، بلا اقدام ، خطوات أخرى ويلحقها . ولابد أن اخاه يتجول قريبا منه ، خطوات أخرى ..

ولكن ، فجاة ، تبرز من الليل اربعة اشباح ، تقترب من احدى المشانق . ويشعر صانع الأقواس بغضبته تتيقظ ، يهجها قدوم هؤلاء في وقت غير مناسب الآن براهم . انهم اربعة من السلاء ، اربعة من القادة « دون فرنسيسكو دو مندوسا » ، و « دون دييغو باريا » ، و « كارلوس دو توان » ، و « برناردو سانتوريون » .

ويختفي «بابتوس» بسرعة وراء أحد المتاريس ، يؤجج غيظه أن يراهم — حتى في هذه اللحظات التي يحوم فيها الموت على الجميع — لم يفقدوا شيئا من زهوهم وكبريائهم . هكذا ، على الأقل ، يراهم في الظلمة . فهذا ، مثلا ، « دييغو باريا » فارس سان خوان ، ما يزال يحمل كل أسلحته ، ومعها الصليب الأبيض الثماني مفتوحا كالوهرة على جانبه الأيسر ، بينما الايطالي « سانتوريون » يحمل فوق درعه الوشاح الفرو الذي يزيده عطرسة .

انه يكره « برناردو سانتوريون » هذا اكثر من الجميع . لقد بدأت كراهيته له منذ ابحروا من «سان لوكار» ، وظلت في تزايد طوال الرحلة ، لكثرة ما رواه له عنه الجنود الآخرون . فهو يعرف الآن عنه انه كان ضابطا صغيرا لدى الأمير « دوريا » ، وانه قاتل تحت امرته في نابولي واليونان ، وان العبيد الأتراك المربوطين بالمجاديف كانوا يتلوون تحت سياطه . ويعرف ايضا أن القائد « الأميرال » قد اعطاه هذا الوشاح الفرو في نفس اليوم الذي انعم فيه عليه الامبراطور بوسام كبير . ولكن هذا كله لا يبرر هذه الصحبة . لو رأته وهو على ظهر المركب لظننت ان الأمير « اندريا دوريا » كان هو القادم الى امريكا . ان له في التحطر رأسه الأسمر شبه الأفريقي ، وفي الكشف عن الأقواط الذهب المعلقة على الفرو طريقة تدفع « بابتوس » الى أن يصر بأسنانه ويشد على قبضته ..

وتسامر السلاء على ضوء اللهب . وتلتمع خواتمهم ، حين تحركها كبرياء رجال البلاط . ومن ورائهم الحشد الثلاث المعلقة تدور بين اصابع الريح . والجوع والحنق يحفزان صانع الأقواس بود لو يصرخ ، ولكنه لا يستطيع ، ويقبض في صمت مصمم عليه فوق العشب المتفرق .

وحين استرد وعيه ، كان القمر قد اختفى والنار تكاد لا ترى ، موشكة على الانطفاء . وكانت الريح قد هدأت فتضاءل ما يسمع من صراخ الهنود . ونهض « بابتوس » في عناء ونظر في اتجاه المشانق ، فكاد لا يتبين الحشد ، وكانما احاط بها كلها ضباب خفيف . وتحرك شخص ما ، جسد قريب منه ، فحس انفاسه ، فاذا بفرو « برناردو سانتوريون » يبرز ، رائعا ، على ضوء الجمرات الأخير . اما الآخرون فكانوا قد انصرفوا . وانعم « بابتوس » نظره

فى الظلمة ، لا أحد ، لا شقيقه ، ولا حتى الراهب «رودريغو دو سيدا» الذى كان من عادته أن يقوم بجولة فى مثل هذه الساعة ، ومعه كتاب الصلاة .

وتقدم « برناردو سانتوريون » فوقف بين « بانوس » وبين الجثث « برناردو سانتوريون » وحده ، لأن القتلى يعيدون . وعلى بضعة أمتار تهتز الأجساد المسولة الأطراف . وهو يعذبه الجوع هذا يدرك أنه ان لم يهتد به على الفور فلابد أن يجن . وعض « بانوس » ذراعه الى أن استشعر على لسانه دفء الدم .. لكان يلتهم نفسه ، لو استطاع ، لكان يأكل ذراعه .. والأجساد الثلاثة الشاحبة معلقة تهتز ، فى اعياء مفزع .. ليت هذا الايطالى يخلى الساحة ، ليته يعرف عنه مرة واحدة .. مرة واحدة .. الى الأبد .. وفى الحق . لم لا ؟ لم لا يهتبل الفرصة التى بين يديه ويريحه من طريقه الى الأبد ؟ ان احدا لن يعرف . هى فكرة ، وتعدها يغوص سكين القنص العريض فى ظهر الايطالى . ولكن هل فى طاقته ، هو المنهوك القوى ، ان يقفز ؟ لو كان فى بلده لكان واثقا بمهارته وبقدرته ... لو فى بلده .

لا ، لم تكن قفزة . كانت اندفاعة الى امام ، خبيصة متوارية ، كما يفعل كلب الصيد . واضطر ان يرفع القنص بكلتى يديه لكى يمسك النصل ، فما أسرع ما اختفى فى عتمة القرو ! لكأنما تسرب وحده الى الداخل ، باتجاه الغلب ، فى لحم هذا الحيوان الكاسر الذى خطى أخيرا بصيده ! وهوى الحيوان فى صرخة مكتومة ، يرتجف فى تشنجه ، وسقط هو فوقه ، واستشعر على وجهه ، على جبينه وعلى أنفه وعلى خديه ، دفقة القرو . وانتزع السكين وأعاد ضربته مرتين ، ثم ثالثة . انه فى هذيانه لا يعرف هل هو قد قتل ضابط الأمير « دوريا » أم واحدا من تلك السباع التى ما تالوا تدور حول المعسكر . حتى هدات كل رعشة . وحينئذ مد يده الى ما تحت الوشاح فعثر بذراع الرجل ، فكشط هذا الذراع بالسكين وأعمل فيه نهشا بأسنانه التى شحذها الجوع .. لم يفكر فى وحشية ما يفعل ، بل فى ان يعض ، ان يشبع جوعه .. وحينئذ ، حينئذ تقيأ ، رأى على نور القمر الأحمر ، بعيدا ، جد بعيد ، جسد الضابط الايطالى صريعا الى جانب السياج ، وقد رزع سهم بين عينيه لرجاجيتين . وتعثرت أنفاس « بانوس » بحاتم امه القصى ومال فرأى وجه أخيه ، تحت ذلك الوشاح الذى كان سرقه من الضابط بعد موته ليتدثر به .

ويطلق صانع الأقواس آهة غير انسانية ، وكالسكران يصطدم بالسياج المنسى من جذوع الشجر ، ويأخذ يعدو نحو الوهدة ، باتجاه نيران الهنود . وتتحفظ عيناه ، تخرجان من محجريهما وكان ذراع أخيه المشوه يسد حلقومه ويضجره .